**المحاضرة الرابعة : المنهج النّقديّ عند إيمانويل كانط ( 1724 – 1804 )**

**مع الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" سنتعرّف على تيّار فلسفيّ جديد قلب كلّ الموازين ، بل أحدث ثورة فكريّة في تاريخ الفلسفة الحديثة ، امتدّ تأثيرها إلى كلّ الفلسفة المعاصرة الموالية لها .**

**إن انشغال امانويل كانط في بحثه الفلسفي كان متوجها نحو محاولة الكشف عن معيار الحقيقة ، بين ما يسمّى حقائق يقينيّة وبين ما ينتج عن التّجربة ، وقد كان هذا من نتائج التّيّارين المشهورين في تلك الفترة : "العقليّ والتّجريبيّ "، باعتبار أنّ الأول يعتمد على العقل كمبدأ ومعيار للمعرفة و ينطلق من وجود أفكار فطريّة سابقة على التجربة ، في حين يعتمد التّجريبيّون على الملاحظة والتّجربة كمبدأين أساسيّين للوصول إلى الحقيقة .**

**أمام هذا الوضع الفكريّ توجّه كانط وجهة نقديّة خالصة ، حيث أنّه قام بنقد كلا المنهجين وتبيان مواطن ضعفها ، وهو بنقده هذا لم يكن غرضه التّركيب بين التّيّارين والخروج بتيّار جديد ، بل إن غاية كانط كانت أوسع من ذلك ، تمثلت في بناء نسق فلسفي جديد ، تجسّد في الفلسفة النّقديّة الّتي أسفرت عن صياغة منهج فلسفيّ نقديّ تأمّليّ اهتمّ بالبحث في الصّورة الذّهنيّة والموضوع .**

**ولمّا كان العقل هو الأداة الأساسيّة الّتي اعتمد عليها الفلاسفة للوصول إلى المعرفة ، فإنّ كانط توجّه نحو فحص هذه الأداة والبحث في أهمّيّتها ومدى إمكانيّاتها على المعرفة وقدرتها ، قبل البحث في طريقة استخدام تلك الأداة "أي العقل" . فكانت هذه نقطة التّحوّل في الفلسفة الغربية الحديثة .**

**إن كانط جعل العقل في المركز وأعطاه الأهمّيّة الأولى قبل أيّ محاولة للبحث في المعرفة أو البحث عن معيارها ، فأصبح "العقل" هو موضوع البحث ، ومن ثمّة تعرّف على إمكانيّاته على المعرفة وعلى المواضيع الّتي يمكن أن يخوضها هذا العقل ، وبذلك توجّت فلسفة كانط نحو دراسة هذه الأداة الّتي لها الدّور الأساسيّ في كلّ ما يصل إليه الإنسان من معرفة ، فأذهاننا " تصنع العالم الفيزيائيّ الّذي نعيش فيه . وكلّ إنسان مفرد لا يصنع بالتّأكيد عالما منفصلا خاصّا به وفقا لأهوائه الشّخصيّة ونزواته ، لأنّ النّاس يعيشون في عالم مشترك تحكمه قوانين لا تقلّ عن ذلك صرامة ، لأنّهم يدينون بوجودهم لتكوين الذّهن البشري "[[1]](#footnote-2).**

**مما سبق نخلص إلى أن المنهج النقدي عند كانط هو مشروع فلسفي جديد لنقد العقل لذته ، فيكون موضوع النقد هو العقل ، ومن ثمة يصبح موضوعا للتأمل بطريقة جديدة ومغايرة عن طبيعة التفكير السابق ، فقد كانت محاولة كانط هي البحث في إمكانية العقل على المعرفة وحدوده ، أو بالأحرى ما هي المواضيع التي بإمكانه أن يخوض فيها .**

**لم يكن غرض كانط الكشف عن البحث عن منهج المعرفة ، هل في العقل أم في التجربة ؛ بقدر ما كان همه نقد العقل لذاته بذاته ، ولم يكن طريقه في بناء منهجه الشك في نتائج المعرفة كما فعل التجريبيون والعقليون وعلى رأسهم ديكارت ، بل شك في إمكانية العقل ذاته على المعرفة وما مدى قدرته على الخوض في المسائل التي تتجاوز التجربة .**

**مبادئ المنهج النقدي عند امانويل كانط :**

**تتمحور الفلسفة النقدية عند امانويل كانط حول البحث في نظرية المعرفة ، وذلك من خلال الكشف عن طبيعة المعرفة التي يمكن أن يصل إليها العقل ، وما هي حدوده في المعرفة ، وقد نظر لذلك كانط من خلال محاولته الإجابة على ثلاث أسئلة رئيسة وهي :1/ ما الذي أستطيع أن أعرفه ؟**

**2/ ما الذي ينبغي أن أعمله ؟**

**3/ما الذي يمكن أن أعرفه أو اعتقده ؟**

**أما الأول فيرتبط بالعقل ذاته كأداة للمعرفة وهو محاولة للكشف عن إمكانياته في فهم موضوعات المعرفة ، وما هي المواضيع التي يمكنه أن يخوض فيها ؟ . أما السؤال الثاني "ما الذي ينبغي أن أعمله ؟ فيرتبط بنظرية الأخلاق ، بالجانب العملي وقد تجسد ذلك من خلال فلسفته في الواجب الأخلاقي والضمير خاصة . في حين يهتم السؤال الثالث " ماذا يمكن أن أعتقد ؟" بما يمكن أن يعرفه الإنسان أو يعتقده أو بالأحرى ما يمكن بلوغه .**

**وفي بحث كانط عن ماهية العقل قام بتقسيمه إلى ثلاث ملكات : ملكة المعرفة /ملكة الحكم /ملكة الشعور ، وجعل كل واحدة من هذه منها مرتبطة بالأسئلة السابقة التي أسس عليها مشروعه النقدي .**

**أما ملكة المعرفة فترتبط بالسؤال الأول " ما الذي أستطيع أن أعرفه ؟ " وللكلام عنها خصص كانط كتابا ضخما وهو"نقد العقل الخالص أو المحض" يتوجه فيه بالبحث في ماهية العقل وحدوده ،أما ملكة الحكم فقد خصص لها هي الأخرى كتاب "نقد العقل العملي "اهتم بالفلسفة الأخلاقية في الواجب والضمير وقيم الخير والحرية وغيرها.**

**أما الملكة الثالثة فهي بحث في القيم من خلال كتاب "نقد ملكة الحكم".**

**2/ نظرية المعرفة عند كانط :**

**إن تطبيق مبادئ المنهج النقدي أفضى إلى بناء النظرية الكانطية في المعرفة ، إذ سينطلق هذا الفيلسوف من نقده للمنهج التجريبي الذي يحصر معيار المعرفة في التجربة وحدها ، فكانط يرى أن نتائج التجربة نسبية ظنية ، وهو في هذا يتوجه بنقده إلى دافيد هيوم صاحب المذهب التجريبي الشكي .**

**يرى كانط أن نظرية دافيد هيوم التجريبية فيها جزء من الصواب في كونها أقرت بدور التجربة في حصول المعرفة ، لكن لا يمكن بالمقابل الاعتماد على التجربة وحدها باعتبار أن حواسنا تنطوي بالضرورة على مبادئ وتصورات عقلية من شأنها أن تعطي لكل إدراك حسي صيغته أو تُكون لنا مفهوما عنه ، يضيف كانط أن تجربتنا نحو الأشياء مرتبطة بمقدمات قبلية فطرية كمقولة الزمان الذي يربط بين الإدراك الحسي الخالص وبين زمان معين حصلت فيه التجربة ، والأمر نفسه بالنسبة للمكان والعلية وغيرها من المقولات الفطرية التي سيأتي شرحها لاحقا.إذا المعرفة الموضوعية لا تحصل بالإدراكات الحسية وحدها ، بل بالإدراك الحسي تنفعل التصورات .**

**يتوجه كانط كذلك بنقده للمذهب العقلي ، فيرى أن العقل وحده غير قادر على الوصول إلى الحقيقة خاصة في العلوم التي تستوجب التجربة كالعلوم الطبيعية ، لكنه بالمقابل استفاد من فكرة وجود أفكار قبلية في العقل سابقة على التجربة التي هي من نتائج المذهب العقلي .**

**ومنه استنتج أن معيار المعرفة يكمن في الاشتراك بين ما تقدمه الحواس وما يقوم به العقل ، أما التجربة فتقدم معطيات حسية يقوم العقل باستقبالها ومن ثمة ينظمها : "فالتصور يكون خاليا دون إدراك حسي ، والإدراك الحسي دون تصور يكون أعمى " .**

**يضيف كانط أن العقل يقوم بعملية تنظيم الإحساسات وترتيبها بفضل مجموعة من المقولات الأساسية ، وما تقدمه هذه الأخيرة من تصورات باعتبارها أدوات للعقل مهمتها تنظيم ما يستقبله العقل من الحس ، والمقولات هي مقدمات عقلية فطرية سابقة على التجربة .**

**تعريف المقولات : يسميها كانط " الأطر القبلية " وهي كما أشرنا أعلاه أفكار قبلية سابقة على التجربة ، هي بمثابة أدوات للعقل، بواسطتها يدرك الواقع الحسي ، ويقدم حولها فكرة أو تصور ، وهي ليست مستمدة من التجربة ، بل تساهم في فهم الإدراكات الحسية ، وهي بذلك تتميز بكونها ثابتة غير متغيرة ، لأنها تؤدي نفس الدور مع أي نوع من الإدراك الحسي الذي يستقبله العقل ، فمقولة "الزمان" مثلا هي فكرة ثابتة قبلية لا تتغير بتغير الذات المدركة ولا بتغير الإدراك الحسي عند الشخص نفسه ، فهي إذا تتميز بالضرورة والحتمية .**

**أهم مقولات تنظيم المعرفة البشرية التي يضعها كانط : مقولة الزمان والمكان ، ومقولة العلية ، الكم ، الكيف ، الجوهر ، الإمكان ...**

**نخلص إلى أن كانط في نظريته هذه جعل العالم هو الذي يتطابق مع العقل وليس العكس ، فإذا تطابق ما في الواقع مع مقولات العقل حصلت المعرفة ، وبذلك كانت نظريته عكس الفلسفة التي سبقته والمعاصرة له ، والتي كانت ترى أن الحقيقة تكمن في مدى تطابق العقل مع ما في الواقع ، وبالتالي جعلت الواقع هو المركز في حين يمثل العقل مجرد صورة عنه .**

**أفضى هذا التصور الكانطيّ " إلى مطابقة ما في الواقع لما في العقل " .**

**وضع لنا كانط تصوّرا جديدا عن العالم فقسّمه إلى عالم الأشياء كما تظهر لنا " الفينومين " ، وعالم الأشياء في ذاتها " النّومين " ، هذا الأخير الّذي لا يمكن للعقل أن يحيط به ، لأنّه يفوق مستوى إدراكه ويحتوي على عناصر غير تجريبيّة كفكرة الله والخلود والنّفس وغيرها ... ، فهذا العالم هو بمثابة افتراض غير مقيّد بالضّرورة الحتميّة الطّبيعيّة ، من خلاله يمكن تفسير بعض العناصر المرتبطة بوجود الإنسان وحقيقته ومصيره كذلك .**

**أمّا عالم الظّواهر كما هي أي " الفينومين " فهو مجال بحث العقل الإنسانيّ ، وهو كذلك مجال حدوده ، فالعقل لا يمكنه أن يعرف إلّا ما هو في حدود التّجربة الحسّيّة باعتبار أنّ هذه الأخيرة هي الّتي تمدّ العقل بالانطباعات الحسّيّة حول الظّواهر الطّبيعيّة ، فهو لا يحتوي على معان وتصوّرات مفارقة بل يحتوي على ظواهر محسوسة مباشرة قابلة لأن تدرك حسّيّا وهو عالم مرتبط بالضّرورة والحتميّة لأنّ يخضع لقوانين آليّة تحكم عالم الطّبيعة ، وبها نفهم هذا الكون ونفسّره وننشئ حوله معرفة وقوانين .**

1. - **وليام كلي رايت ، تاريخ الفلسفة الحديثة .** [↑](#footnote-ref-2)